الفصل الثاني

طبيعة الأطفال

(فهم التطور الطبيعي للطفل)

«هوذا الويل الثاني!»

كنت حاضراً في اجتماع ليلة أمس، وتطلّعت فرأيت أمّاً شابّة تتصارع مع طفلها الصغير. وبات واضحاً أنه مُصِرّ على تنغيص عيشتها بقدر طاقته -وتحطيم سمعتها بالإضافة إلى ذلك. كانت التعاسة مرتسمة على وجهها بينما كان الطفل يعاود إلقاء رضّاعته على الأرض بوقاحة (وساعده على ذلك أنها كانت تلتقط الرضاعة وتناولها له) وإصدار أصوات غاضبة، جعلت الواعظ يعلّي صوته أكثر وأكثر. وبعدما كرّر تهديداته المحرجة، أجبرها على وضعه على الأرض ليبدأ يعرض مهاراته البهلوانية فيصر على أخذ شيء يخص جاره. فلما حاولت منعه من السرقة واسترجاع المتاع المسروق، رفس برجليه مثل مضرب البيض وأعلن عن احتجاجه صارخاً.

كان الموقف كافياً لإقناعك بأن إبليس نشأ طفلاً! ولكم شكرت الله على أنّ الأطفال في عمر الواحدة لا يزِنون مئة كيلو جراماً، وإلاّ كان عدد الأمهات اللائي يقعن ضحايا لجرائم القتل ازداد جداً. وفهمتُ حينئذٍ أين نشأ مفهوم «الخطية الأصلية»!

تعلمُ الأم أنّ الطفل لا يجب أن يتصرف هكذا، لكن بسبب نمو الطفل العقلي المحدود، تشعر الأم بالعجز. أمّا الأطفال الأكبر سناً، فتصرفاتهم محدودة بعوامل عقلية واجتماعية عديدة، لكن هذا الطفل لا يتأثر بضغط أقرانه أو التهديد بالإحراج أو الرفض، فيعيش حياته لإرضاء ذاته دونما حدود.

وهكذا ينتظر الوالدان عبثاً إلى حين تطوُّر فهم الطفل ليصححا سلوكه «السيىء». فيقفان عاجزين بينما تنمو الأنانية وخِسّة النفس من وراء ستار «صِغَر الطفل» وعدم فهمه.

فما هي يا ترى القوة الدافعة لهذا الطفل، وكيف يمكن قهرها؟ يعوزنا شيء من الفهم لطبيعة الطفل لكي نغرس فيه التدريب الملائم.

الانحصار في الذات من عند الله

من أجل نمونا الأخلاقي، جعلنا الله في حالة دائمة من الحاجة إلى الغير والاعتماد عليهم. وتظهر هذه الحاجات بوضوح تام في الطفل الصغير. فهو يحتاج إلى الطعام والدفء والعشرة والتسلية وحفاضة جافة. وهبه الله دوافع قوية وغير إرادية مثل التذوق والشم والسمع والنظر والرغبة والاستشعار.

وهذه الرغبات والأهواء لا تكون مكتملة في الطفل الصغير، وكلما كبر وجد نفسه مدفوعاً بالرغبة نحو أشياء «جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ» وأشياء «بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ» وأخرى «شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ» (أو تجعل الإنسان

حكيماً). فتخضع إنسانيته النامية لرغبة شديدة في البناء والمعرفة وطلب التقدير والتميّز والنجاح والحب والبقاء في حالة مطمئنة.

وكلما كبر الأطفال تعلّموا كيف يتحايلون ويستغلون بيئتهم المحيطة بهم لإرضاء ذواتهم. الابتسامة، الزعيق، الرفس بالقدمين، تحريك الرأس وهزّها، الصراخ، الصياح .. «احضنّي-أكّلني-انظر إليّ-ألا يشعر أحد باحتياجاتي المُلحّة؟-هل يوجد شيء أهم مني؟»

إن عالم الطفل محدود باحتياجاته؛ فهي الواقع الوحيد الذي يدركه. وسرعان ما يتعلم أن «رغباته» أيضاً أمر سهل تنفيذه، فلا يعود يفكر في الواجب أو المسؤولية أو الاختيار الأخلاقي. ولا يمتلك الطفل كبرياء ولا تواضعاً .. بل فقط رغبة. يأتي، فيرى، فيأخذ! لقد خُلِق هكذا. وهو بطبيعته غير قادر على مراعاة احتياجات الغير. المولود لا يعرف أنك متعب وأنك تحتاج أنت أيضاً إلى الراحة.

إنّ انحصار الرضّع والأطفال الصغار في ذواتهم له كل مظاهر الرذيلة، لكنّهم يتصرفون بموجب دوافع فطرية معطاة من عند الله لتسديد احتياجات طبيعية. إنهم «زاغوا ... مِنَ الرَّحِمِ. ضَلُّوا مِنَ الْبَطْنِ، مُتَكَلِّمِينَ كَذِبًا» (مزمور ٥٨: ٣). لكن الله لا يحسب لهم الكذب خطية، إنما يعتبرهم بدون فطرة أخلاقية، ومن ثم بلا مسؤولية. فهم لا يملكون النضج العقلي والأخلاقي لرفض الشهوات والأهواء؛ من ثم لا يمكن اعتبارهم مستحقين اللوم. يبدأ الأطفال الحياةَ منحصرين -ببراءة- في الذات.

تلــوم أو لا تلــوم

مـا أن يكـبر الطفـل، فيبلـغ مثـلاً ثمانيـة أشـهر أو اثــني عشـر شــهراً، حتـى يقـل اهتمـام البـالغين بمطالبـه وتبــدأ عمليــة الفطــام. فيــتركون الطفل ينتظر، ويُقال لـه: «لا» وتوضـع لـه الحـدود. يجـب أن يتعلـم أنـه لا يُبــدَّى دائمـــاً علـــى الآخريـــن. وعندئـــذٍ إذا لم يُخضِـــع التدريـــب مظاهر «أنانية» الطفل، فإنه قد يصير «مدلَّــلاً»، أي تفسـد طبيعتـه.

يقــع الأبـــاء المحبطـــون الشـــاعرون بـــالذنب فريســـة للتحـــايل والاســتغلال عــن طريــق «زنّ»الطفــل وزعيقــه. حينئـــذٍ يبـــدأ الشِّـــجَار والنقـار. فيمسـك الوالـد بـالطفل بخشــونة ويطوّحــه هنـا وهنـاك، ممـا يملأ الطفل استياءً ونقمة، ثم يلومه الكبارُ علـى رد فعلـه.

يشعر الطفل بالتوتر، لكنه لا يقلــل مــن مطالبــه، بــل يتــآمر ويسـتعرض الموقـف في حسـبانه، ثــم يلجــأ إلى افتعــال نوبــة مــن الغضــب. قــد رأيـت بعيـني طفـلاً في عمـر الثانيـة يمسـك بسـلاح ويضـرب بـه والدتـه. الطفــل الصغـير لم ينضــج بعــد بحيــث يفـهم المسـؤولية ويــزِن القِيَــم ويتّخـذ قـرارات واعيـة بنـاءً علـــى فــائدة أخلاقيــة أو اجتماعيــة؛ ومــع ذلك هـو قـادر –بدون شك– علـى محاكـاة العقليـة الإجراميـة.

في ســبيل الفـهم

مـا الـذي يجـري؟ منـذ زمـن وجـيز، كـان الكبـار المحيطــون بــهذا الصغير يلبّون له كـل رغبـة، بمـا في ذلـك الطعـام الـذي يحـافظ علـى حياته، لكنهم الآن يتوقّعون شيئاً مــن العطـاء مـن جانبـه .. أمّـا هـو فـلا

يريد أن يعطي. فالأخذ كان أسلوب حياته حتى من قبل مولده، وهو وضع مريح له كل الراحة.

لكننا -نحن الآباء- نشعر بقدرات الأطفال، ونتوقّع منهم تبادل العطاء والأخذ على مستوى يتناسب مع نضوجهم. وحين يتخلّفون عن تحقيق توقّعاتنا، نشعر بالضجر. الأطفال لا ينتقلون أبداً بسلاسة وسهولة من مرحلة الانحصار الكامل في الذات إلى تحمل المسؤولية وتسديد بعض احتياجاتهم الخاصة.

نحن نسعد حين يخطفُ رضيعٌ عمره ثلاثة أشهر الطعامَ من أيدينا ويضعه في فمه، لكن الموقف يفقد ظرفه وطرافته حين يحاول طفل عمره ثلاث سنوات أن يفعل نفس الشيء. نحن نسعد حين يقاطع ابنُ الثلاث سنوات حديثنا ويحكي قصةً من عنده، لكننا نتوقع من ابن التاسعة أن يقول: «بعد إذنك!» وينتظر الوقت المناسب ليشارك في الحديث.

عندما نظن أن الطفل قد نضج إلى الدرجة التي يقدر عندها على تحمل مسؤولية أفعاله، نتوقع منه ذلك تلقائياً. فإذا تباطأ في تنفيذ واجبه، نتضايق منه لأنه «لا يتصرف بحسب سِنّه».

على عكس الإنسان، لا تحتاج البهائم إلى اتخاذ قرار يحرمها من تنفيذ غريزتها الفطرية. فهي تسعى دائماً -ضمن حدودها التي وضعها الخالق لها- إلى إشباع رغباتها. لكن الطفل في مرحلة النمو وكذلك الرجل البالغ، الذي لا يسمو فوق رغباته والانغماس في

ملذّاته، هو مقصّر في تحقيق قصد الله وخطته. أصل كل خطية إنما هو الانغماس الجامح في الرغبات الممنوحة لنا من الله. ورغم أن الطفل لا يُحاسَب بسبب نقص تطوره الأخلاقي، إلاّ أن انغماسه في الشهوات دون رادع سيتسبّب يوماً ما في ارتكابه المعاصي.

جنين روحي

قد صمّم الله الحياة لتكون رَحِماً روحياً: أي مكاناً يستمر فيه عمل الخلق. نعم، قد اكتمل الخلق الجسماني وانتهى الله منه، لكن الخلق الأخلاقي مستمر. فالبشر لا يولدون حكماء أو أبراراً أو على قدر متطور من الوعي.

لم يكن آدم وحواء ناقصين جسمانياً أو أخلاقياً. وسائر البشر عليهم أيضاً النمو واجتياز مراحل مختلفة لبلوغ القدرة على الحياة المستقلة. الجنين الذي عمره أربعة أشهر هو نفس حية، ومع أن جميع أعضائه الصغيرة تبدو قادرة على الحياة، إلاّ أنه خليقة غير مكتملة تحتاج إلى مزيد من النمو قبل الانفصال عن أمه. وعلى نفس القياس، يملك الطفل في عمر الثالثة كل السمات الصغيرة الدّالة على شخص مسؤول أخلاقياً -من إدراك للصواب والخطأ والإحساس بالعدل والمسؤولية عن التصرفات الشخصية والضمير والواجب والشعور بالذنب والخجل ...الخ. مع ذلك ليست مَلَكاته (قدراته) الأخلاقية متطورة بما يجعلها فعّالة. فالطفل إذن ليس قادراً على الحياة الأخلاقية، إذ هو كائن أخلاقي ناقص؛ من ثمّ لا يكون مسؤولاً عن تصرفاته. فالطفل في عمر الثالثة -على المستوى

الأخلاقي- لا يزال في الرحم. وبتقدمه في النمو، ينتقل من عدم الفهم الأخلاقي إلى المسؤولية التامة. وقد تضاربت الآراء بشأن الموعد الذي يعتبرهم الله فيه مسؤولين عن تصرفاتهم وأفكارهم الشخصية. فجرى العرف على أن سنّ المسؤولية تبدأ من الثانية عشرة، ويقول الوحي إن سنّ المسؤولية تبدأ قبل السنة العشرين من العمر (قارن تث ١: ٣٩ بعدد ١٤: ٢٩-٣١).

لكن في رأيي المسؤولية ليست «سِناً»، بل «حالة» (يعقوب ٤: ١٧؛ لاويين ٥: ٣)، وهذا يتباين من طفل إلى آخر، فقد يبدأ طفل في سنّ الخامسة، في حين يتأخر آخر إلى سنّ الرابعة عشر. والعلم عند الله.

الورطة

أمّا الورطة التي يقع فيها الآباء فهي: كيف نتعامل مع الطفل أثناء هذه المرحلة الانتقالية من عدم الفهم الأخلاقي إلى المسؤولية التامة؟ كيف نعامله وهو واعٍ أخلاقياً بنسبة ٣٠٪ وساذج أخلاقياً بنسبة ٧٠ ٪؟ كيف نعلم إلى أي مدى يكون مسؤولاً؟ إننا نعلم أنه فيما يختص بالدينونة، لا يحسبه الله مستحقاً للوم حتى تكون جميع مَلَكاته الأخلاقية فعّالة - أي حتّى يصير كائناً قادراً على الحياة من الناحية الأخلاقية. لكن إذا تريّث الوالد إلى أن يفهم الطفل ضرورة ممارسة ضبط النفس، فسيكون الطفل قد نمّى عادة إشباع رغباته الجسدية إلى أقصى حد. والمشكلة التي يجب على الوالد مواجهتها، هي أن النزعات أو الغرائز الفطرية تنشط قبل

سنّ الرشد بوقت طويل. لذلك يوفّر الوالدان أول خبرة تعليمية للطفل في إطار مُطَمئِن يلبّيان فيه رغبات واحتياجات الطفل. وهو وضع لا يُعلَى عليه.

الأب لا يريد أن يحطّم نزعات الطفل الفطرية، لكن يجب أن يغرس فيه الاعتدال. وهو أمر لا يقدر الطفل في مراحل نموه المبكرة أن يختاره.

المسؤولية الأبوية

بذلك نكون قد وصلنا إلى صُلب هذا الفصل والدافع الأساسي لتأليف هذا الكتاب. وهو أمر يجدر فهمه: على الوالدين تحمل ذلك الجزء من الواجب الأخلاقي للطفل الذي لم يكتمل نضجه بعد. أي أن الوالدين لا يلعبان دور الشرطي، بل يشبه دورهما دور الروح القدس. عندما يمتلىء قِلع الطفل برياح النزعات القوية دون بوصلة التمييز الأخلاقي، يتحتم على الوالدين الإمساك بالدفة وتقلّد منصب الملاّح. حين يفتقرون بسبب صغر سنهم إلى المبادىء، يكون تدريبنا ومثالنا مقياسهم ومعيارهم. قبل أن يقرروا عمل الصالح، يجب أن نكيّفهم على عمل الصالح. في الماضي كانت الأم تتنفس وتأكل بدلاً من الطفل، وكان جسمها يصرّف مخلّفاته. وبالمثل على الصعيد الأخلاقي، إلى أن ينمو وعي الطفل ومَلَكاته الأخلاقية إلى درجة الفعالية المستقلة، يظل الوالد صوت ضميره، ومبادرته، ومعياره الأخلاقي الذي لم يولد بعد.

وبمـرور الأيـام يدنـو الطفـل مـن مولـده الأخلاقـي المسـتقل. وفي يـوم مـن الأيـام سيعمل قلبـه الروحـي بدونـك. سـيترك حمايـة تقديسـك ويقـف بمفـرده مسـتنيراً بضمـيره الخـاص (١كـو ٧: ١٤). وإلى حـين بلوغـه النضـج، لا يعرف الطفل اعتدالاً سـوى مـا يغرسـه فيـه والـداه.

علـى أنّ الوالـد يجـب أن يفـهم دوره في الفطـام الأخلاقـي للطفـل. ففـي يـوم مـا سيسـتطيع الطفـل أن يختـار. ولـن يسـتطيع التدريب، مهما زاد قـدره، السـيطرة علـى نمـو الخطيـة، لكـن التدريـب الـذي نوفّره يسهّل حـدوث التوبـة بعـد الانغمـاس في الخطيـة.

نحـن لا نعـامل «الأنانيـة» في المولـود والطفـل الصغـير علـى أنّـها خطية، لكننا نـدرك إلى أيـن تـؤدي. إن النزعـات في حـد ذاتـها -علـى الرغـم مـن كونـها غـير شـريرة- تـهيّئ الفرصـة للخطيـة. مـن ثـمّ يتعيّـن علينا ونحـن نـدرّب أولادنـا، أن نـأخذ بعـين الاعتبـار الشر الـذي تجلبـه النفس العنيـدة في خاتمـة المطـاف.

نحـن الآبـاء لا نسـتطيع منـح الـبرّ لأولادنـا، لكـن نقـدر أن ننمّـي فيـهم التزامـاً راسـخاً بالـبرّ. لا يمكننـا نقـش الشـريعة علـى صفحـات قلوبـهم، لكـن نقـدر أن نكتـب الشـريعة والإنجيـل علـى صفحـات ضمـائرهم.

لا تستسـلموا للاّمبـالاة أو الكسـل أو الإهمـال والتـهاون. أنـت مسـؤول أيـها الأب وأيتـها الأم عـن تحديـد مسـتوى فـهم طفلـك، وأن تحاسبه علـى أسـاس هـذا المسـتوى.

وهـذه مهمـة شـبه مسـتحيلة إذا اعتمـدت علـى فـهمك وحـده. إذا كنـت ولـي أمـر طفلـك، فيسـتطيع قلبـك أن يمـيّز العـالم مـن وجهـة نظـره. عندمـا يظـن الطفـل أن أمـراً مـا خطـأٌ، فـهو خطـأ (يعقـوب ٤: ١٧). وحيثمـا يتمتـع بفـهم أخلاقـي ثـم يعصَـى، يجـب عقابـه بالعصـا. وحيثمـا يفتقـر إلى فـهم أخلاقـي لنوعيـة تصرفاتـه، يجـب تدريبـه وتعويده. وأحياناً تُستعمل العصا في التدريب، وهـو مـا سنتحدث عنـه بالتفصيل لاحقـاً.

في يـدي

تشوّه الخزف الـذي تحـوّل إلى إنـاء للـهوان وهـو في يـد الخـزّاف، فعاد وصبّـه مـن جديـد ليصبـح إنـاءً للكرامـة يصلـح لمـائدة السـيد. إذا كان الله هـو الخزّاف، وطفلـك الخـزف، فـأنت العجلـة الـتي يسـتخدمها الله مؤقتـاً لإدارة الخـزف. وكمـا أُعطِـي آدم وحـواء جنـة ليتعـهّداها، استلفتَ أنـت قلبـاً وعقلاً صغيراً لتتعـهده وترعـاه.

وسـيؤون الأوان الـذي يتعيّـن علـى أطفـالك فيـه الوقـوف وحدهـم قبالـة «شَـجَرَةَ مَعْرِفَـةِ الْخَـيْرِ وَالشَّـرِّ». وكمـا سمـح قصـد الله مـع آدم وحوّاء، سـيتناول أطفـالك حتمـاً مـن الثمـرة المحرَّمـة. لذلـك يمكنـك الآن وهم في سنوات نموهـم، التأثـير علـى اسـتجابتهم بعـد أكلـهم مـن تلـك الثمـرة.

إنّ كـل أحـداث الحيـاة اليوميـة، مقرونـة بـالتمييز الداخلـي، تضـع أساساً للمعرفـة يبـني عليـه طفلـك أحكامـاً بخصـوص الصـواب والخطـأ.

وعند منعطف ما في ذلك الطريق، سيدرك طفلك مسؤوليته وواجبه أمام الله. حينئذٍ يكون طفلك بلا عذر.

دعوة إلهية

بعدما فهمنا ذلك، نقدر أن نتصوّر ما يحدث داخل طفلنا النامي بصورة أفضل. فكما نما الطفل يسوع في الحكمة والمعرفة، كذلك يجتاز طفلك نمواً في الفهم. والكتاب المقدس قادر أن يحكّمه للخلاص (٢تيموثاوس ٣: ١٥). عليك أن تجهّز طفلك لتخليص نفسه من «الْجِيلِ الْمُلْتَوِي» (أعمال ٢: ٤٠). والله عنده نموذج أصلي للمنتج التّام الصّنع، وهذا النموذج هو أن «نكون مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ» (رومية ٨: ٢٩). نحن الأباء نتعاون مع الله من أجل اليوم الذي فيه يشابه أطفالنا «قِيَاسِ قَامَةِ مِلْءِ الْمَسِيحِ» (أفسس ٤: ١٣). ووعد الله سارٍ إلى الآن: «دَرِّبِ الْوَلَدَ بِمُقْتَضَى مَوَاهِبِهِ وَطَبِيعَتِهِ، فَمَتَى شَاخَ لاَ يَمِيلُ عَنْهَا» (أمثال ٢٢: ٦، ترجمة كتاب الحياة).